

طرفه بن العبد

للأستاذ بشير الشريفي

مسكين طرفه ! لقد ثكلته آلهة الشعر والهوى والخور باكرًا
غضًا نضير العود ، مسكين لم يتمتع بالشباب ؛ بل كان لا يتجاوز
الخامسة والعشرين من عمره حينما طوته النون في سجل العدم
ودفنت معه عبقرية فياضة ، وذهنية جبارة ، وشاعرية قوية حارة .
خمسة وعشرون حجة ، انها حلم قصير يا طرفه . . ولكنه حلم
لذيذ ، وحلم جـدّ عجيب . أيها الشاعر الاغتنامي والشاب
الفيلسوف المتهتك .

على رمال الصحراء الطليقة ولد طرفه ، ولكن متى ؟ هذا مالا
يعلمه أحد ؛ كان والده من سادة « بكر وائل » ومن ذوى
الشرف الرفيع والمقام المحمود في قومه ، وسمع طرفه يفتخر بأصله ؛
لقد علم الأقوام أنا بنجوة علت شرفاً من أن تضام وتشتا
لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها ويأوى إليها المستجير فيعصا
وتشاء الأقدار أن تسلب الشاعر والديه وهو لم يزل طفلاً في
المهد فينشأ المسكين كما نشأ الخطيئة والأخطل وبشار وأبو نواس
وابن الرومي ، يتما محروماً من كل عطف ورعاية ، لا يعرف سوى
أعمامه الذين أهملوا تربيته وهضموا حقه .

لقد ثار طرفه في شبابه على هؤلاء الذين نبذوه وظلموه وكانوا
علة شقائه ، ثار على أعمامه وذوى قريبه ، وفي ساعة ذكرى ماض
محروق مهان ، وطفولة نكدة محرومة ، تلهم عرائس الشعر هذا
العبقري الصغير أبياته الخالدة :

فما لي أراي وابن عمي مالكا متى أدن منه ينأ عني ويبعد
يلوم ، وما أدري علام يلومني كما لا مني في الحى قرط بن معبد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على الرء من وقع الحسام المهند
ولا أعلم كيف غاب بعض النقاد الادباء هجاء طرفه لقومه
في قوله :

أسلمني قومي ولم يغضبوا لسوءه ، حلت بهم فادحة

وكلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحة
وكيف رموه من أجل ذلك بكثرة الشر ولؤم الطبع ، ما كانوا
محقين وما كانوا منصفين ، انهم لم يفتنوا الى أن الشاعر ما قال
بيته إلا بعد أن لاقى من قومه كل احتقار وقسوة ؛ وكل ما من
شأنه أن يجعل الشاعر يشور على البيئة التي نشأ فيها .

ثم هل تظن أن طرفه عنى قومه فقط حينما قال : « كلهم أروغ
من ثعلب » اننا لا أظن ذلك بل أرجح أنه عنى الناس اجمعين ؛ وأنه
كان سيء الظن بالبشر شديد الحذر منهم ، ليس هو القائل في ذم
الأخلاء :

كل خليل كنت خالته لا ترك الله له واخيه

ولد طرفه عبقرياً وشب عبقرياً ، فأسمعنا وهو في زهرة العمر
ونجر الشباب أناشيد الحياة والموت فأطربنا بانغامه إلى حين ، نعم
الى حين ، فقد أحرس الزمن لهاته قبل أن يكمل الخامسة العشرين
ربيعاً ؛ وكأن طرفه كان يشعر بمصيره ويعلم أن أيامه في الحياة
قصيرة ؛ فراح يسخر بمن يردعه عن اغتنام لذائذ الدنيا ويرجعه
عن الخمر والنساء واقتحام الهيجاء :

ألا أي هذا الزاجري احضر الوغى وان أشهد اللذات هل أنت غلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي
واعتقد طرفه أن « الكل باطل » ورأى أن هنالك شيئاً
واحداً ثابتاً ، هو أن الحياة تمضي ، وما عدا ذلك أباطيل :

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدمر ينقد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي لكالطوكل المرخي وثنياء باليد
لعمرك ما الأيام الا معارة فما اسطعت من معروفها فتزود
وما دام طرفه يرى أن اسمه سيسحى من سجل الوجود وأن
قبر البخيل النحام في شرع الفناء كقبر الغوى الضال الذي قضى
عمره في الشرب واللعب :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
ما دام يرى ذلك فقد صمم على أن يفتنم أويقات الحياة ويتمتع
بكل ما تناله يده من لذائذ ومتع فعاش — وهذا طبيعي ممن مات
ولم يبلغ الخامسة والعشرين من سنه — صريع الكأس والأعين
النجل ؛ واهباً روحه للجمال وحسه للذة ، أما نفسه فظلت كبيرة

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
واسمع إنه يحدثك عن الخير والشر :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
وتأمل قوله وهو في السجن - يخاطب قاتله (١) عمرو بن هند

أبا منذر كانت غروراً صحيقتي
ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضي
أبا منذر أفنيت فاستبقي بعضنا

حنانيك بعض الشر أهون من بعض
ألا تشعر معي أن في قوله « أبا منذر أفنيت فاستبقي بعضنا »
نقاء وحرارة ، وليناً وروعة واستعطافاً ، وإن قوله « بعض الشر
أهون من بعض » آية يتمثل بها .

وذكروا أن من حكمه التي حملت خول الشعراء كلبيد
وجرير والاخلط على الاعتراف بفضله وتقدمه قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالآخبار من لم تزود
ويروى عن عائشة رضى الله عنها قولها : كان النبي صلى الله
عليه وسلم إذا استراب الخبر يتمثل بقول طرفة « ويأتيك بالآخبار
من لم تزود » وكان ابن عباس يقول عن هذا البيت « انه كلام نبي » .
النبي محمد يتمثل بقول طرفة . !

وابن عباس يقول إن كلامه كلام نبي .
وأبو العلاء المعري يقول في رسالة الغفران « .. لو لم يكن لطرفة
أثر إلا قصيدته التي على الدال لكان قد أبقى أثراً حسناً » .

أما قصيدة طرفة التي على الدال فهي معلقته ، اسمع مطلعها
الرائع :

نخولة أطلال بركة شهيد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صبحي على مطيئهم يقولون لآلهلك أسى وتجد
ونظر طرفة الى الحياة ، الى المستقبل ، بعين فيلسوف حكيم ،
بعين شيخ محرب بصير بمواقب الأمور فقال :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب
رحم الله طرفة شاعر الشباب والجمال والحكمة ما
شرقى الأردن بشير الشريفي

الحامى

(١) يذكر الرواة أن طرفة اتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه ، ثم
أرسله بكتاب الى المكعب ، عامله على البحرين وعمان - بأمره فيه بقتله
لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاء بها بقتله المكعب حوالى سنة ٦٠ ق . هـ

لم يذرها الهوى ولم يخضعها الحسن ، أبداً محترمة مهيبه طموحة
الى المجد :

إذا القوم قالوا « من قتي » ، خلت أنى
عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
قلت تبغى في حلقة القوم تلقى
وان تقتنصى في الحوانيت تصطد
متى تأتني أصبحك كأساً روية

وإن كنت عنها غانياً ؛ فاغد وازدد
وان يلتقى الحى الجميع تلاقى

الى ذروة البيت الشريف المصمد
ندامى يبيض كالنجوم وقينه تروح إلينا بين برد مجسد
ومازال تشرابى الخور ولذتى ويبى وإنفاق طريقي ومتلدى
الى أن تحامتى العشرة كلها وأفردت افراد البعير المعبود
شعر رقيق عبر به صاحبه فأحسن التعبير ، وطريقة واقعية
مذهبا الاباحة والصراحة ، حقاً لقد خلق هذا الصغير طرفة
شاعراً فياض القريحة ، انظر ، إنه مافكر في غير نفسه ، ولا استمد
إلا من حسه .

ربما دهشت اذا قلت لك إن هذا الشاعر الشاب الذى مات
قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، والذى عاش كما
قال بشار :

عشت بين الندمان والراح والمز

هر فى ظل مجلس حسن
قد امتاز أيضاً بما نظم من الحكم البالغة والأمثلة السائرة ،
لا تعجب ، إن طرفة لم يكن مخلوقاً عادياً ، بل كان عبقرىاً ملهماً ، نظر
بعين بصيرته الى الحياة نظر الشيخ المحرب ، فحدثنا عن الوجود
والعدم حديث العارف الحكيم ، وعالج لنا خلال السنوات القليلة
التي عاشها كثيراً من مسائل الحياة واحوال المجتمع وخوارج النفس
قال يطالب الغيث لديار حبيته :

فسق ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديعة تهى
شعر جزل فصيح ، طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن

الفاضل ضار ، وقد قال محمد (ص) « اللهم اسقنا سقياً نافعاً »
أنا وأنت وكل الناس تتمثل بقول هذا الشاب :